أبو حيّان النحوي الأندلسي

ومنهجه في كتابه ارتشاف الضرب من لسان العرب

د. مزيد اسماعيل نعيم

يلاحظ أن الدراسات المحدثة التي تناولت دراسة النحو في الأندلس ما زالت تتسم بالعموم وباصدار الأحكام السريعة ، ويظهرذلك في أن أكثر المحدثين يعترف بوجود مذهب نحوي في الأندلس ، على حين يذهب الآخرون الى الشك في وجود مذهب نحوي في الأندلس.

واذا ما أردنا أن تكون أحكامنا صحيحةفانه يجب علينا أن ندرس أعلام اللغة والنحو الذيـن ظهـروا في الأندلس دراسـة وافيـةومتخصصة ، وذلك حتى نتمكن من الحـكم على اتجاهات تفكيرهم النحوي ٠

ومن هنا رأيت أن أوجه هذه الدراسةالى المادة النحوية عند أبي حيان عن طريـق كتابه ارتشاف الضرب ، للأسباب الآتية :

١ ـ ان كتاب ارتشاف الضرب يعد بحـقموسوعة نحوية جمـع فيها أبو حيان منابـع النحو وروافده ، وذلك حتى عصره ، ولم يقدم لنا هذا الكتـاب الا بعد أن اطلـع على آراء النحاة المتقدمين والمتأخرين ،فأفاد منها ، فجاء كتابه منطوياً على زبـدة آرائه النحوية واللغوية ٠

٢ ـ سلك أبو حيان منهجاً فريداً بين النحاةفي تأليف كتابه هذا الذي يمثل امتزاج ثقافـة المغرب بثقافة المشرق ٠

٣ ـ هذا الكتاب يوقفنا على ما وصل اليـهالعقـل العـربي من تصـور لدراسة اللغـة والتأليف فيهـا ٠

هذه الأمور دفعتني الى دراسة أبي حيانمن خلال الارتشاف ٠

□ **حياتــه :**

هو أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف ابن علي بن يوسف بن حيــان ، النـَفزي(١) الأندلسي ، جياني** الأصل ، غرناطي المولد. ولد في غرناطة في أواخــر شوال ســنة أربع وخمسين وستمائة وقيل : ان مولده كــان في « مطخشــارش » بلدة قــرب غرناطــة ، أو ضاحية لها ٠

وقال المقري في مكان ولادة أبي حيان : « وما ذكره ـ الصفدي ـ رحمه الله في موضع ولادة أبي حيان غير مخالف لما ذكره في الوافي أنه ولد بغرناطة ٠ الا أن قــوله « بمدينــة مطخشارش » فيه نظر ، لأنــه يقتضي أنهــا مدينة ، وليست كذلك ، وانما هي موضــع بغرناطة ، ولذا قــال الرعيني : ان مــولد أبي حيان بمطخشارش من غرناطة ٠٠ وهو صريح في المراد ، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه ، على أنه يمكن أن يرد كلام الصفــدي لذلك ، والله تعالى أعلم »*** ٠

□ **ثقافتـه :**

يبــدو أن أبا حيــان قــد بدأ حياتــه التعليمية ، كما بدأها أترابه من طلاب العلم في الأندلس، وذلك بدراسة القرآن والحديث، وعلوم اللغة العربية ٠ يقــول ابن خلدون : « وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعلم القــرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم ، الا أنه لما كان القرآن أصل ذلــك وأسه ، ومنبع الدين والعلوم ، جعلوه أصلا في التعليم ، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها ، وتجويد الخط والكتاب(١) ٠

وقد تلقى القراءات السبع في مســقط رأسه على يد عبد الحق بن علي بن عبد الله الأنصاري ، وأحمــد بن علي بن الطبــاع ، وأبي جعفر أحمد بن الزبير وغيرهم(٢) ٠

وهذا أبو حيان يقول : **قرأت القــرآن برواية ورش ، وهي الرواية التي ننشأ عليها ببلادنا ونتعلمها أولا في المكتب على المســند المعمر العدل أبي طاهر اسماعيل بن هبة الله ابن علي المليحي بمصر(٣) ٠**

ولم تكن دراسته مقصورة على القرآن ، وقراءته ، بل درس علوماً أخرى ، يقــول : « وقد حفظت في علم اللغــة الفصيــح لأبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني واللغــات المحتوي عليها دواوين مشاهير العرب الستة : امرىء القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة ، وديوان الأفــوه الأودي ، لحفظي عن ظهــر قلب هــذه الدواويــن ٠ وحفظت كثيراً من اللغــات المحتوى عليهــا ، نحو الثلث من كتاب الحماسة ، واللغات التي تضمنتها قصائد مختارة من شعر حبيب بن أوس لحفظي ذلك(٤) ٠

وكان يرى أن على المفسر أن يكون ذا ثقافة واسعة ، ومعرفة جيدة بمختلف العلوم ، يقول : « فبعلم النحــو تعرف الأحــكام التي للكلم العربية من جهة افرادهــا ، ومن جهــة تركيبها ، وبعلم اللغة تعرف معاني الأسماء ، والأفعال التي لا يفهم المقصود من كــلام الله وألفاظه الا بمعرفته والاطلاع عليه ، وبعلم الحديث يتعين المبهم ، ويتبين المجمل ، وسبب النزول والنسخ ، وبأصــول الفقــه يعــرف الاجمال والتبيين ، والعموم والخصــوص ، والاطلاق والتقييــد ، ودلالة الأمر والنهي ، وما أشبه ذلك ، وبعلم الكلام يعرف ما يجوز على الله تعالى ٠٠ وبعلــم القراءات يعــرف اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص ، أو تغيير حركة ، أو اتيان بلفــظ بدل لفــظ(٥) ٠٠

يضاف الى هذا أنه كان ذا معرفة بلغة الترك والفرس وغيرهم(٦) ٠

وبهذه الثقافة الواسعة تهيأ له أن تكون له اليد الطولى في التفسير والحديث ٠٠ وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم(٧) ٠

□ رحيله من الأندلس الى مصر :

ذكرت المصادر أن رحيله من الأندلس الى مصر ، انما يرجع الى سببين :

الأول : أنه حملته حدة الشباب على التعرض للأستاذ أبي جعفر الطباع ، وقد وقعت بينه وبين أستاذه ابن الزبير واقعة ، فنال منه ، وتصدى للتأليف في الرد عليه ، وتكذيب روايته ، فرفع أمره للسلطان ، فأمر باحضاره وتنكيله ، فاختفى ثم ركب البحر ولحق بالمشرق(٨) ٠

الثاني : أنه مما قوى عزمه على الرحلة أن بعض العلماء بالمنطق ، والفلسفة والرياضة ، والطبيعة ،

قال للسلطان : اني قد كبرت ، وأخاف أن أموت ، فأرى أن ترتب لي طلبة أعلمهم هذه العلوم ، لينتفعوا من بعدي ، قال أبو حيان : فأشير الى أن أكون من أولئك وترتب لي راتب جيد ، وكسوة واحسان ، فتمنعت، ورحلت مخافة أن أكره على ذلك(٩) ٠ ومهما يكن من أمر ، فان أبا حيان قد رحل من الأندلس سنة ٦٧٨ هـ أو ٦٧٩ هـ الى موطن آخر أكثر هدوءاً ، وأيسر رزقاً، فكانت أرض مصر هي ملاذه ٠ وكانت مصر يومذاك تحت ظل المماليك وقد لقى أبو حيان في القاهرة اهتماماً كبيراً ، حيث عين مدرساً للنحو في جامع الحاكم بأمره سنة ٧٠٤(١٠) ، ثم تولى بعد ذلك تدريس التفسير في قبة السلطان الملك المنصور في عهد السلطان القاهر الملك الناصر(١١) ٠ كما أنه خلف مشيخة محمد بن النحاس في تدريس النحو (١٢) ٠

كما أنه كان على علاقة جيدة بالأمير سيف الدين أراغون النائب الناصري(١٣) ٠

وقد ذهب أبو حيان الى مكة المكرمة ، ولقي فيها أبا الحسن علي بن صالح الحسيني(١٤) ، وذهب أيضاً الى الشام ٠ ثم عاد الى القاهرة وبقي فيها الى أن توفي ٠

□ شيوخه :

من الشيوخ الذين أخذ عنهم علم القراءات ، والحديث : ابن الطباع ، وابن الزبير ، وابن بشير القزاز ، وابن أبي الأحوص(١٥) ٠

ومن شيوخه في النحو : أبو الحسن الأبدي ، وابن الزبير ، وابن الأحوص وابن الضائع(١٦) ٠

□ تلاميذه :

قال السيوطي : أخذ عنه أكابر عصره ، وتقدموا في حياته كالشيخ تقي الدين السبكي(١٧)، وولديه، والجمال الأسنوي(١٨)، وابن قاسم(١٩) وابن عقيل(٢٠) والسمين(٢١) ، وناظر الجيش(٢٢) ، والسفاقسي(٢٣) ، وابن مكتوم ، وخلائق(٢٤) ٠

□ عقيدته :

ذكرت المصادر أن أبا حيان كان مالكياً ـ وهو المذهب السائد في المغرب والأندلس ـ ثم أصبح ظاهرياً ، وكان يقول : « محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه(٢٥) ٠

وكان أبو حيان قد اطلع على الفقه الظاهري في غرناطة ، فدرس كتاب « المحلي

في الخلاف العالي في فروع الشافعية » لابن حزم الظاهري المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ، ثم اختصر أبو حيان هذا الكتاب باسم « الأنور الأجلى في اختصار المحلي » ، وقد ذكر هذا الكتاب في تصانيفه لتلميذه الصفدي(٢٦) • وعندما قدم الى مصر ، ورأى مذهب الظاهر مهجوراً فيها تمذهب للشافعي(٢٧) • ولعل البحث عن لقمة العيش هو الذي كان يتحكم في تبديل مذهبه ، فهو يجاري أهل مصر في مذهبهم ، ليضمن حياة مستقرة، ورزقاً وفيراً، يدل على ذلك أنه لما دخل مصر، وتقلد بمذهب الشافعي ، وسئل عن ذلك ، فقال بحسب البلدة(٢٨) •

وكان شديد الحملة على المتسترين بالاسلام في عصره ، يقول « وما زال في كل عصر منافقون يتسترون بالاسلام، ويحضرون الصلوات كالمتفلسفين الموجودين في عصرنا هذا(٢٩) • وكان يعجب من هؤلاء الذين يشتغلون بجهالات الفلسفة في مصر ، من غير أن ينكر ذلك أحد ، يقول « ولما حللت بديار مصر ، ورأيت كثيراً من أهلها يشتغلون بجهالات الفلاسفة ظاهراً من غير أن ينكر ذلك أحد ، تعجبت من ذلك، اذ كنا نشأنا في جزيرة الأندلس على التبرؤ من ذلك ، والانكار له ، وأنه اذا بيع كتاب في المنطق انما يباع خفية ، وأنه لا يتجاسر أن ينطق بلفظه انما يسمونه: المفعل ، حتى ان صاحبنا وزير الملك ابن الأحمر أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الحكيم ، كتب الينا كتاباً من الأندلس، يسألني أن أشتري أو أستنسخ كتاباً لبعض شيوخنا في المنطق ، فلم يتجاسر أن ينطق بالمنطق ، وهو وزير فسماه في كتابه بالمفعل(٣٠) •

□ صفاته وأخلاقه :

كان أبو حيان كثير الضحك والانبساط بعيداً عن الانقباض ، جيد الكلام حسن اللقاء، جميل المؤانسة ، فصيح الكلام ، طلق اللسان، ذو لمة وافرة ، وهمة فاخرة ، وله وجه مستدير ، وقامته معتدلة التقدير ، ليس بالطويل ولا بالقصير(٣١) • وكان لا يشرب الخمرة ، ولا يلعب النرد والشطرنج(٣٢) •

□ وفاته :

توفي بمنزله خارج باب البحر في يوم السبت بعد العصر ، الثامن والعشرين من صفر سنة ٧٤٥ هـ » ودفن في الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر ، وصلى عليه بالجامع الأموي بدمشق صلاة الغائب(٣٣) •

وقيل : انه توفي عشية يوم السبت السابع والعشرين من صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة، بمنزله خارج باب البحر، ودفن من الغد خارج باب النصر بتربة الصوفية(٣٤) •

وقيل : بتربته بالبرقية(٣٥) •

وقيل : انه توفي سنة ٧٤٣ هـ ، وقد أنكر المقري على من شك في تاريخ وفاته ، بقوله « وما وقع في كلام كثير من أهل المغرب أن أبا حيان توفي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة غير ظاهر ، لأن أهل المشرق أعرف بذلك ، اذ توفي عندهم ، وقد تقدم أنه توفي سنة خمس وأربعين ، فعلى كلام أهل المشرق في هذا المعول ، والله أعلم(٣٦) :

ب ـ آثاره(٣٧) :

١ ـ تقريب المقرب •
٢ ـ التدريب في تمثيل التقريب •
٣ ـ المبدع الملخص من الممتع •
٤ ـ الموفور في شرح ابن عصفور
٥ ـ التذييل والتكميل في شرح التسهيل

٦ ـ التخييل الملخص من شرح التسهيل
٧ ـ التكميل في شرح التسهيل
٨ ـ منهج السالك
٩ ـ الارتشاف
١٠ـ رسالة غريب القرآن على لغات القبائل
١١ـ غاية الاحسان في علم اللسان
١٢ـ النكت الحسان في شرح غاية الاحسان
١٣ـ اللمحة البدرية في علم العربية
١٤ـ الشذا في أحكام كذا
١٥ـ تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب
١٦ـ الارتضاء في الفرق بين الضاد والظاء
١٧ـ التذكرة
١٨ـ القول الفصل في أحكام الفصل
١٩ـ الشذرة
٢٠ـ شرح كتاب سيبويه
٢١ـ التجريد لأحكام سيبويه
٢٢ـ كتاب الأسفار الملخص من شرح سيبويه للصفار
٢٣ـ نهاية الاغراب في علمي التصريف والاعراب
٢٤ـ فضل النحو
٢٥ـ الأفعال في لسان الترك
٢٦ـ الادراك للسان الأتراك
٢٧ـ زهو الملك في نحو الترك
٢٨ـ منطق الخرس في لسان الفرس
٢٩ـ نور الغبش في لسان الحبش
٣٠ـ المخبور في لسان البشمور
٣١ـ البحر المحيط
٣٢ـ النهر الماد من البحر
٣٣ـ جزء في الحديث
٣٤ـ الأنور الأجلى في اختصار المحلى
٣٥ـ الوهاج في اختصار المنهاج
٣٦ـ الاعلام بأركان الاسلام
٣٧ـ مسلك الرشد في تجريد مسائل نهاية ابن رشد
٣٨ـ المورد الغمر في قراءة أبي عمرو
٣٩ـ المزن الهامر في قراءة ابن عامر
٤٠ـ الأثير في قراءة ابن كثير
٤١ـ النافع في قراءة نافع
٤٢ـ الرمزة في قراءة حمزة
٤٣ـ النير الجلي في قراءة زيد بن علي
٤٤ـ الروض الباسم في قراءة عاصم
٤٥ـ غاية المطلوب في قراءة يعقوب
٤٦ـ تقريب النائي في قراءة الكسائي
٤٧ـ عقد اللآلى في القراءات السبع العوالي
٤٨ـ الحلل الحالية في أسانيد القراءات العالية
٤٩ـ تحفة الندس في نحاة الأندلس
٥٠ـ مجاني الهصر في آداب وتواريخ أهل العصر
٥١ـ نقد الشعر
٥٢ـ خلاصة التبيان في علمي البديع والبيان
٥٣ـ الأبيات الوافية في علم القافية
٥٤ـ يواقيت السحر « نوافث السحر في دمائث الشعر »
٥٥ـ نثر الزهر في نظم الزهر
٥٦ـ ديوان أبي حيان
٥٧ـ نكت الآمالي
٥٨ـ بغية الظمآن من فوائد أبي حيان
٥٩ـ الالماع في افساد اجازة الطباع
٦٠ـ فهرست مسموعاته
٦١ـ قطر الحبي في جواب أسئلة الذهبي
٦٢ـ النضار في المسلاة عن نضار
٦٣ـ نفحة المسك في سيرة الترك
٦٤ـ مشيخة ابن أبي المنصور
٦٥ـ كتاب المقصور ٠ وهو مختصر لتحفة المدود في المقصور والممدود لابن مالك « ينظر التذييل والتكميل ٣٤٣/٥ » ٠

□ اسم الكتاب :

قال أبو حيان في مقدمة الارتشاف(٣٨) « ولما كمل هذا الكتاب خلواً مبانيه من التشبيج(٣٩) والتعقيد ، حلواً معانيه للمفيد والمستفيد سميته ارتشاف الضرب(٤٠) من لسان العرب ·

□ دواعي تأليف الكتاب :

كان ابن مالك قد ألف كتاباً باسم « تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد » وهو كتاب جامع للنحو والصرف ، وقد حظي هذا الكتاب بشروح كثيرة ، كان من أهمها شرح ابن مالك نفسه ، ويقال(٤١) ان ابن مالك لم يكمل شرحه ، بل وصل فيه الى باب مصادر غير الثلاثي ·

وكان أبو حيان من الذين اهتموا بشرح التسهيل ، حيث طلب منه بعض طلاب العلم أن يشرح كتاب ابن مالك من أوله حتى آخره، قال أبو حيان « كان من بعض المعتنين بهذا العلم تشوق الى أن شرح الكتاب كاملا ، ولا أترك منه مكان حلي عاطلا ، ليكون كله جارياً في الشرح على سنن واحد ، وحاوياً ما أغفل من الزوائد والفوائد ، فالشارح لكلام غيره ليس كالشارح لكلام نفسه »(٤٢) ونستطيع من مقدمة الارتشاف أن نستشف دواعي تأليفه للارتشاف ، حيث يقول : « أما بعد ، فان علم النحو صعب المرام ، مستعص على الافهام ، لا ينفذ في معرفته الا الذهن السليم ، والفكر المرتاض المستقيم ، وكان من تقدمنا قد انتزع من الكتاب تآليف قليلة الأحكام، عادمة الاتقان والاحكام، يجلها النقد ، وينحل منها العقد ، وربما أهملوا كثيراً من الأبواب ، وأغفلوا ما فيه من الصواب ، فتآليفهم تحتاج الى تثقيف ، وتصانيفهم مضطرة الى تصنيف · ولما كان كتابي المسمى بـ (التذييل والتكميل في شرح التسهيل) قد جمع من هذا العلم ما لا يوجد في كتاب، وفرع بما حازه من تآليف الأصحاب، رأيت أن أجرد أحكامه عارية الا في النادر من الاستدلال والتعليل ، حاوية لسلامة اللفظ وبيان التمثيل ، اذ كان الحكم اذا برز في صورة المثال أغنى الناظرين عن الطلب والسؤال ، ونفضت عليه بقية كتبي لأستدرك ما أغفلته من فوائد ، وليكون هذا المجرد مختصاً عن ذلك بزوائد ، وقربت ما كان منه قاصياً ، وذللت ما كان عاصياً ، حتى صارت معانيه تدرك بلمح البصر ، لا تحتاج الى اعمال فكر ولا اكداد نظر ·

□ ترتيب موضوعات الكتاب :

جاء ترتيبه لموضوعات كتابه الارتشاف وتبويبها ، بعد خبرة عميقة في اللغة ، واحاطة ، تامة بقواعدها وأحكامها ، يظهر ذلك في دقة العرض ، وبسهولة الترتيب ، فهو يحصر موضوعات الباب الواحد ، ويجمع بين المتجانس منها ، بحيث يبدو ما تضمنته هذه الأبواب من معلومات وحقائق قريبة من الدارسين · فنجده قد تكلم على الصرف أولا ثم النحو ، مقدماً الصرف على النحو خلافاً لما درج عليه النحاة من تقديم النحو على الصرف · قال ابن جني « انك لا تكاد تجد كتاباً في النحو الا والتصريف في آخره »(٤٣) ·

وقد انفرد أبو حيان بهذا الترتيب الذي يتفق مع وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة ومنهجها ·

واذا أردنا أن نتلمس طريقته في ترتيب الموضوعات في كتابه ، فانه لا بد أن نلقي

نظرة على ما ارتآه من ترتيب للموضوعات النحوية، مخالفاً في ذلك ابن‌مالك في التسهيل· فمن ذلك مثلا أن ابن مالك رتب المعارف عنده على النحو الآتي : المضمر ، العلم ، الموصول ، الاشارة ، المعرّف بأل ·

أما ترتيب المعارف عند أبي حيان فقد جاء على النحو الآتي : المضمر ، العلم ، اسم الاشارة ، المعرف بالأداة ، الاسم الموصول ·

ان التشابه بين الترتيبين واضح ، ولكن أبا حيان قدم اسم الاشارة على الاسم الموصول ويبدو أن هذا التقديم أدق ، وأكثر صحة ، فاسم الاشارة مقدم على الاسم الموصول في التعريف ، والاشارة ملازمة للتعريف · وقد نسب الى ابن السراج أنه قد قدم اسم الاشارة على سائر المعارف(٤٤) ·

وقد علق‌السيوطي على ترتيب‌ابن مالك بقوله « وقد قدم ابن مالك في التسهيل باب الموصول على باب الاشارة مع أنه عنده مؤخر عنه في الرتبة ، وليس لما صنعه وجه من المناسبة »(٤٥) ·

ومن الجدير بالذكر أن أبا حيان قد أدخل باب الحقيقة والمجازضمن أبواب كتابه، لما لذلك من أثر في فصاحةاللغة، لأن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً ، ويصد عن الحمل على الظاهر صاد ، فيحتاج الى أن يحمل التركيب على غير الظاهر وهو المجاز ·

وهكذا نرى أن أبا حيان ينهج‌نهجاً علمياً دقيقاً في عرض موضوعات كتابه وتبويبها ، تمشياً مع منهجه في التيسير ، ودقة التصنيف ، بحيث تبدو الحقائق والأحكام النحوية قريبة من المتعلمين ·

□ مصادر الكتاب :

لم أجد ـ فيما أعلم ـ كتاباً نحوياً تعددت مصادره ، كما تعددت مصادر هذا الكتاب ويمكننا حصرها فيما يلي :

١ ـ كتاب سيبويه ، فقد أكثر من الاستشهاد به ، فلا تكاد تمضي صفحة من صفحات الارتشاف الا وتجد اسم سيبويه يتردّد فيها غيرة مرة ، حتى يخيل للقارىء أن أبا حيان قد أفرغ كتاب سيبويه في الارتشاف ·

٢ ـ كتاب العين، للخليل بن أحد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٥ هـ ·

٣ ـ كتاب المقتضب للمبرد ، المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ·

٤ ـ كتاب الأصول ، لابن السراج المتوفى سنة ٣١٦ هـ ·

٥ ـ كتاب الافصاح ، لمحمد بن هشام الخضراوي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ ·

٦ ـ كتاب البديع ، لمحمد بن مسعود الغزني ابن الذكي المتوفى سنة ٤٢١ هـ ·

٧ ـ كتاب‌البسيط، لضياء الدين بن العلج·

٨ ـ كتاب درة الغواص للحريري ·

٩ ـ كتاب رصف المباني من حروف المعاني ، للمالقي ·

١٠ـ كتاب شرح التسهيل ، لابن مالك ·

١١ـ كتاب الأوسط ، لأبي الحسن سعيد ابن مسعدة ، الأخفش الأوسط ·

١٢ـ كتاب البهي ، للكسائي المتوفى سنة ١٨٩ هـ ·

١٣ـ الفرخ، للجرمي المتوفى سنة ٢٢٥ هـ ·

١٤ـ الخصائص ، لابن جني ·

١٥ـ كتاب التمام في تفسير أشعار هذيل لابن جني ·

١٦ـ مجالس ثعلب ، لأحمد بن يحيى ٠
١٧ـ النهاية ، لابن الخباز ٠
١٨ـ الغرة ، لابن الدهان ٠
١٩ـ المنصف ، للمازني ٠
٢٠ـ المفصل ، للزمخشري ٠
٢١ـ المحكم والمخصص لابن سيده ٠
٢٢ـ الانصاف، لأبي البركات بن الأنباري ٠
٢٣ـ الترشيح ، لأبي بكر خطاب بن يوسف ابن هلال القرطبي ٠
٢٤ـ المستوفى ، لأبي سعيد علي بن مسعود الفرخان ٠
٢٥ـ شرح الخلاصة ، لبدر الدين بن مالك ٠
٢٦ـ شرح كتاب سيبويه للخشني ، محمد ابن مسعود أبو بكر الخشني المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ٠
٢٧ـ طبقات الشعراء ، لابن سلام ٠
٢٨ـ النكت على الايضاح ، لأبي علي الحسن ابن علي بن حمدون الأسدي المعروف بالجلولي ٠
٢٩ـ النقد ، لابن الحاج ، أحمد بن محمد ابن أحمد الأزدي المتوفى سنة ٦٤٧ هـ٠
٣٠ـ التوطئة ، لأبي علي الشلوبين المتوفى سنة ٦٤٥ هـ ٠
٣١ـ الانتخاب، لعبد الله بن هشام الحضرمي٠
٣٢ـ المفتاح ، لابن عصفور ٠
٣٣ـ شرح الجمل الصغير لابن عصفور ٠
٣٤ـ شرح الشافية الكافية لابن مالك ٠
٣٥ـ التسهيل ، لابن مالك ٠
٣٦ـ نوادر ابن الاعرابي ٠
٣٧ـ نوادر أبي زيد الأنصاري ٠
٣٨ـ معاني القرآن ـ للفراء ٠
٣٩ـ التصريف ، لابن كيسان ٠
٤٠ـ الحقائق ، لابن كيسان ٠
٤١ـ الايضاح ، والحلبيات ، والبغداديات والعسكريات والبصريات والهيتيات والاغفال والتذكرة ، والحروف ، والحجة ، وكتاب الشعر ، لأبي علي الفارسي ٠
٤٢ـ نقع الغلل، لأبي بكر محمد بن ميمون٠
٤٣ـ المقنع ، لابن الباذش ٠
٤٤ـ صحيح البخاري ٠
٤٥ـ الروض الأنف ـ للسهيلي ٠

□ الحدود والمصطلحات النحوية :

كان لاهتمام النحاة في الحدود والتعريفات أثر كبير في تأثرهم بالقواعد المنطقية والفلسفية ومن الواضح أننا لا نجد هذه الدقة في التعريفات مثلا عند سيبويه ، كما جاءت عند من أتى بعده من النحاة المتأخرين ، فسيبويه كان يعنى في توضيح الأبواب النحوية بالتمثيل، وذكر الشواهد(٤٦) في أكثر الأحيان ، ولم يغرق فيما يندرج تحت التعريف ، أو يخرج عنه ، بل كان يعمد الى ذكر الأقسام المنطوي عليها الباب(٤٧) ٠

وقد ازدادت عناية النحاة بالتعريفات ، وغالى بعضهم في ذلك حتى أصبحت تلك التعريفات تعج بالمنطق والفلسفة ٠ ويظهر هذا بصورة جلية عند النحاة المتأخرين ، كابن الحاجب ، والرضي وابن الخشاب وغيرهم ٠

واذا أردنا أن نتبين طريقة أبي حيان في التعريف ، وتحليل الحدود ، فاننا نجد ذلك يسير في اتجاهين :

الأول : أنه كان يذكر الحدود والتعريفات في بداية الباب ، فهو يورد تعريفاً عاماً لها ، ثم يقوم بتحليل كامل لهذا الحد ، بحيث يبعده عن الغموض ، أو اللبس الذي قد يلحق به ٠ يقول في باب الاعراب

« **الاعراب في اللغة :** الابانة أعرب عن حاجته أبان عنها .

والتحسين : أعربت الشيء حسّنته .

والتغيير : عربت معدة الرجل ، وأعربها الله : غيّرها .

والانتقال : عربت الدابت في مرعاها : جالت .

وأما الاعراب في الاصطلاح : فذهبت طائفة الى أنه نفسه هو الحركات اللاحقة آخر المعربات من الأسماء والأفعال ، وعلى هذا فالاعراب عندهم لفظي ، وهو اختيار ابن خروف ... وطائفة : الى أن الاعراب معنوي ، وهو تغيير في آخر الكلمة ، أو ما كالآخر لعامل دخل عليها نفسها .»

ثانياً : كان يميل الى عدم الايغال في تحليل الحدود والتعريفات ، وذلك في أغلب أبواب الكتاب ، وكأنه يرى أن التعريف وسيلة لتصور الموضوع ، لا غاية مقصودة ، واذا كان الهدف من التعريف والحد ، هو التبيين والوضوح ، فان الأبواب النحوية الواضحة لا تحتاج الى حد ، ولهذا نجد أبا حيان يردد عبارة « ان هذا لا يحتاج الى رسم(٤٨) ولا الى حد(٤٩) .

فمن ذلك قوله في باب التابع : وهو محصور بالعد ، ولا يحتاج الى رسم، ولا حد، وهو النعت ، وعطف البيان ، والتوكيد ، والبدل ، وعطف النسق .

وفي تعريف التوكيد يقول : التوكيد معنوي ولفظي ، والمعنوي تابع بألفاظ مخصوصة فلا يحتاج الى حد ولا رسم .

وهكذا نرى أن أبا حيان لم يهتم كثيراً بالحدود والتعريفات ، وأعتقد أن هذه النظرة صحيحة ، لأنه ما دام معنى التعريف وتصور الموضوع واضحاً في أكثر الأبواب النحوية ، فلا ضرورة تدعو الى الاسهاب فيما يدخل تحت التعريف أو يخرج عنه . ومهما يكن من أمر فان أبا حيان يمثل مرحلة من مراحل التطور للتعريف النحوي .

أما المصطلحات النحوية التي نستعملها الآن فقد مرت بتطورات قبل أن تستقر على الشكل المألوف لدينا . وحسبنا أن ننظر في كتاب سيبويه الذي يعد المصدر الأول الذي استقى منه النحاة علم النحو واصطلاحاته ، لندرك ما طرأ على هذه المصطلحات من تغير وتطور .

أي أن المصطلحات النحوية قد مرت بمراحل وتدرجت الى أن ثبتت واستقرت في القرن الرابع الهجري ، وكان دور النحاة الذين جاءوا بعد هذا لم يتجاوز الاختيار والتسليم بما شاع منها .

وجاء أبو حيان في وقت وصلت فيه المصطلحات النحوية الى وضع أخير، وأصبحت معروفة به . وعلى هذا فانه ليس من الممكن أن يحاول تغيير اصطلاح قد شاع تداوله بين المتعلمين والنحاة .

وهكذا نلاحظ أن أغلب المصطلحات التي استعملها أبو حيان كانت بصرية ، وكان دوره مقصوراً على ماشاع من هذه المصطلحات وعم استعماله .

□ أسلوب أبي حيان في الارتشاف :

استطاع أبو حيان أن يقدم لنا تلك المسائل النحوية ، والحقائق العلمية في كتابه، بأسلوب يتسم في أغلب أحواله بالبساطة والدقة ، فكان يعتمد على الموازنة الدقيقة بين آراء النحاة ، ثم يختار أكثرها استعمالا

وأصحها نقلا ورواية · أي أنه يأخذ بالنقل والرواية ثم بالاستقراء والتحليل ·

وكان أبو حيان يتحرى صحة النقل معتمداً في ذلك على صحة الرواية ، ونجد في الارتشاف كثيراً من العبارات التي تدل على ذلك مثل : ويروى عن بعض العرب ، وقالت الأعراب ··· وحكى قطرب ، وحكى يعقوب ··· وكقوله : انتهت هذه المسائل من كلام الفراء ·· وكقوله : والذي حكيناه نقلناه عن أبي جعفر النحاس ·

□ اهتمامه باللهجات والقراءات :

كان أبو حيان شديد الاهتمام بلغات القبائل ، ويظهر ذلك جلياً في كتابه البحر المحيط ، فقد بلغ عدد اللهجات التي عزا اليها أربعاً وستين قبيله(٥٠) ·

وقد قال أبو حيان « كل ما كان لغة قبيلة يقاس عليه(٥١) ·

وكان يأخذ بالمنقول من اللغات ، ولا يذهب الى استكراهها ، يظهر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى « ولا تقربا هذه الشجرة »(٥٢) · قرىء الشجرة بكسر الشين، وقرىء أيضاً الشيرة بكسر الشين والياء المفتوحة بعدها ، وكره أبو عمرو هذه القراءة ، قال أبو حيان : وينبغي أن لا يكرهها ، لأنه لغة منقولة فيها(٥٣) ·

وهذا الاهتمام باللهجات انما يرجع الى ما بين اللهجة والقراءات والنحو من ارتباط وثيق اذ القراءات تعتمد في أوجه خلافها على ما بين اللهجات من فروق وخلاف ، كما أن لهجات القبائل ما هي الا نحو من نحو اللغة الفصحى وطريق منه(٥٤) ·

أما القراءات فقد عرّفها بأنها « العلم الذي يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ، وقسم القراءات الى متواترة وشاذة(٥٥) ·

وقد عني بالقراءة المتواترة ، والشاذة، لأن هذه القراءاتجاءت على لغة العربقياسها وشاذها ، ويظهر ذلك فيما يلي :

١ ـ كان يرجع بالقراءة الى اللغة يلتمس لها شاهداً فيرويه ، أو نظيراً فيقيسها عليه ، فنراه يستشهد على جواز حذف الحركة الظاهرة من الأسماء والأفعال اعتماداً على لغة تميم يقول في باب الاعراب « واذا كان حرف الاعراب صحيحاً فلا يجوز الا ظهور الاعراب فيه، وحذف الحركة منه خصه أصحابنا بالشعر ، وذهب المبرد الى أنه لا يجوز ذلك الا في الشعر وذهب بعضهم الى جواز ذلك وان كان قليلا ، ومنه قراءة من قرأ « وبعولتهن »(٥٦) بسكون التاء ، وما حكاه أبو زيد « ورسلنا »(٥٧) · وحكى أبو عمرو أن لغة تميم تسكين المرفوع من نحو : يعلمهم ، وقراءة « بارئكم »(٥٨) « ومكر السيء »(٥٩) في الوصل بسكون الميم واللام والهمزة ·

وقد دافع أبو حيان عن هذه القراءة ، ورد على من يلحن قراءها · جاء في البحر المحيط : قرأ مسلمة بن محارب (بعولتهن) بسكون التاء فراراً من ثقل توالي الحركات، وهو مثل ما حكى أبو زيد (ورسلنا) بسكون اللام ·· وقد منع المبرد التسكين في حركة الاعراب ، وزعم أن قراءة أبي عمرو لحن ·· قال أبو حيان : وما ذهب اليه ليس بشيء ، لأن أبا عمرو لم يقرأ الا بأثر عن رسول الله ﷺ ، ولغة العرب توافقه ، فانكار المبرد لذلك منكر · ومما يدل على صحة قراءة أبي عمرو ما حكاه أبو زيد من قوله تعالى « ورسلنا لديهم يكتبون »(٦٠) ·

٢ ــ اذا كانت القراءات متواترة ، فانه لايرجح بينها لصحتها، وثبوت روايتها، يقول في تفسيره لقوله تعالى « واذ واعدنا موسى أربعين ليلة »(٦١) • قرأ الجمهور : واعدنا ، وقرأ أبو عمرو : وعدنا بغير ألف • ولا حجة لترجيح احدى القراءتين على الأخرى ، لأن كلاً منهما متواتر ، فهما في الصحة على حد السواء(٦٢) •

وخلاصة الأمر أن أبا حيان كان كثير الدفاع عن القراءات المتواترة والرد على من يلحن قراءها •

أما القراءات الشاذة فلم يكن أبو حيان أول من اهتم بها ، واجتهد في تخريجها بل نجد أن ابن جني قد جمع القراءات في كتابه المحتسب •

فكان أبو حيان يعمل علىتوجيه القراءة الشاذة وتخريجها ، فيرجعها الى اللغة ، أو الى لهجة من اللهجات العربية ، باحثاً لها عن شاهد أو توجيه • من ذلك : حكى اللحياني عن بعض العرب أنه ينصب بـ « لم » وخرج أبو حيان على ذلك قراءة من قرأ « ألم نشرح لك صدرك »(٦٣) بنصب الحاء • وقال أبو حيان في البحر المحيط : قرأ الجمهور بجزم الحاء لدخول الجازم ، وقرأ أبو جعفر بفتحها ، وخرجه ابن عطية في كتابه على أنه : ألم نشرحن ، فأبدل من النون ألفاً ، ثم حذفها تخفيفاً ••• ثم قال أبو حيان : ولهذه القراءة تخريج أحسن من هذا كله ، وهو أنه لغة لبعض العرب ، حكاها اللحياني في نوادره ، وهي الجزم بلن ، والنصب بـ (لم) عكس المعروف عند الناس(٦٤) •

ويلاحظ أن منهج أبي حيان في تتبعه للقراءات والاحتجاج لها ، يتفق مع منهج المحتسب لابن جني ، والحجة لأبي علي الفارسي ، وذلك في أنه يعرض القراءة ومن قرأ بها ، ثم أنه كان يرجعها الى اللغة ليلتمس لها شاهداً فيرويه ، أو يرجع بها الى احدى لهجات القبائل •

□ الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف :

تعد قضية الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف من القضايا الهامة التي دار حولها نقاش وخلاف ، ويمكننا حصر هذا الخلاف في في اتجاهات ثلاثة(٦٥) •

١ ــ الاتجاه الأول رفض الاحتجاج بالحديث في المسائل النحوية ، وكان في طليعتهم أبو حيان وأبو الحسن بن الضائع المتوفى سنة ٦٨٠ هـ •

٢ ــ الاتجاه الثاني : جوز الاحتجاج به ، وكان في طليعتهم ابن مالك •

٣ ــ الاتجاه الثالث : وقف موقفاً وسطاً بين الاتجاه الأول والثاني ، ويمثل هذا الاتجاه الشاطبي •

وقد عرف عن أبي حيان أنه يمثل من يرفضون الاحتجاج بالحديث النبوي ، وعرف عنه أيضاً أنه قد تحامل كثيراً على ابن مالك عندما جوز الاستشهاد بالحديث الشريف • ولكن الأحاديث التي أوردها أبو حيان واحتج بها في أثناء عرضهللمسائل النحوية تخالف ما جاء عنه ، وتناقض ما قاله في ابن مالك •

واليكم بعض الأمثلة التي تدل على استشهاد أبي حيان في أثناء عرضه للمسائل النحوية •

١ ــ ما جاء في كلامه على جواز دخول الضمير بين ها التنبيه ، واسم الاشارة، ثم ذكر الحديث : ها أنا ذا يا رسول الله(٦٦) •

٢ ـ ما جاء عند كلامه على حذف خبر لا النافية للجنس ، يقول : ومن حذف الخبر قوله تعالى « قالوا لا ضير »(٦٧) ، « فلا فوت»(٦٨) ، ثم قال : ولا ضرر ولا طيرة ، ولا عدوى(٦٩) ٠

٣ ـ ما جاء عند كلامه على ظن وأخواتها بأن (ان) المكسورة اذا خففت أهملت ويجب أن يؤتى بلام الفارقة بين ان المؤكدة ، وان النافية ، ثم قال : وقد جاءت اللام محذوفة في قول الشاعر :

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك

وان مالك كانت كرام المعادن

وفيما روى في الحديث : ان كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل ٠ أي : لكرام المعادن ، وليحب الحلواء ، وذلك لدلالة الكلام على أن الخبر مثبت لا منفي(٧٠) ٠

٤ ـ ما جاء في أثناء كلامه على مسوغات الابتداء بالنكرة وتخصيصها بالاضافة ذكر الحديث : خمس صلوات كتبهن الله على العباد(٧١) ٠

٥ ـ ما جاء في أثناء كلامه على أن « بيد » تأتي للاستثناء ، قال : وتساوي بيد غير وتضاف الى أن وصلتها ، وتقع في الاستثناء المنقطع ، وفي الحديث : أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش ، واسترضعت في بني سعد(٧٢) ٠

٦ ـ ما جاء عند كلامه على معنى (من) من أنها تأتي لابتداء الغاية في غير المكان ٠ قال ومثال دخولها لابتداء الغاية في غير المكان : قرأت من أول سورة البقرة الى آخرها ٠٠٠ وتقول اذا كتبت كتاباً من فلان الى فلان ٠ وفي الحديث : من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم(٧٣) ٠

٧ ـ ما جاء في أثناء كلامه على المضاف الى ياء المتكلم على قلب واو (مخرجو) الى ياء ، وادغامها في ياء المتكلم ، يقول : وهذه الياء في ضاربي وشبهه مفتوحة كقوله :

أودى بنيّ وأعقبوني حسرة

عند الرقاد وعبرة لا تقلع

وفي الحديث : أو مخرجيّ هم(٧٤) ٠

٨ ـ ما جاء في أثناء كلامه على جواز افراد اسم التفضيل ، أو جمعه اذا أضيف الى معرفة ، يقول : فاذا كان مضافاً الى معرفة ، فالذي عليه الجمهور أن أفعل اذا أضيف الى معرفة لا يخلو من التفضيل البتة ، ويكون بعض ما يضاف اليه ، وتارة تفرد ، وان كانت مضافة كقوله تعالى : « ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة »(٧٥) ، وتارة تجمع كقوله تعالى « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها »(٧٦) وفي الحديث : ألا أخبركم بأحبكم اليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ٠ فأفرد أحب وأقرب، وجمع أحاسن(٧٧) ٠

٩ ـ ما جاء في كلامه على لزوم لام الأمر اذا أسند الفعل الى غير الفاعل المخاطب وأورد على ذلك الحديث : قوموا فلأصل لكم(٧٨) ٠

١٠ـ ما جاء في أثناء كلامه على معمول الصفة المشبهة ليدل على جواز اتباع معمول الصفة المشبهة بجميع التوابع ما عدا الصفة، فانه لم يسمع من كلامهم،

هكذا زعم الزجاج . وقد جاء في الحديث في صفة الدجال : أعور عينه اليمنى . واليمني صفة لعينه ، وهو معمول للصفة ، فينبغي أن ينظر(٧٩) .

هذه الأحاديث التي احتج بها أبو حيان وان كانت قليلة ، تدفعنا الى القول بأن أبا حيان كان من الذين استشهدوا بالأحاديث لتأييد القواعد النحوية ، ولعل ما كان بينه وبين ابن مالك هو الذي جعله يتحامل على ابن مالك ويقف له بالمرصاد .

□ الاحتجاج بالشعر :

كان أبو حيان واسع الاطلاع على أشعار العرب ، ومهتماً بحفظها وروايتها ، ومعتمداً عليها في الاستشهاد ، وتثبيت الأحكام النحوية ، ونلاحظ في شواهده الشعرية أنه لم يتوسع في دائرة الاستشهاد ، بل جعل شواهده مقصورة على شعراء الطبقة الأولى والثانية والثالثة ، وبهذا يكون قد أخرج الشعراء المحدثين من دائرة الاستشهاد والاحتجاج ، وان ما ذكره من أبيات لشعراء محدثين كأبي تمام والمتنبي وبشار وغيرهم ، لا يحط من موقفه في الاحتجاج ، لأن هذه الأبيات لم ترتفع عنده الى مرتبة الاحتجاج الذي حظي به شعراء الطبقات الثلاث ، انما كان ذكره لها من باب الاستئناس ، أو زيادة في ايضاح معنى . كما أنه لم يبن عليها قاعدة نحوية ، وقد صرح غير مرة بأنه لا يستشهد بشعر المولدين وان كان يشق بقائل ذلك الشعر(٨٠) .

□ رأي أبي حيان في العلة والعامل والسماع والقياس :

١ ــ رأيه في العلة : أشار أبو حيان في مقدمة الارتشاف الى أنه يريد أن يقرب الأحكام النحوية عارية من التدليل والتعليل . ورغبته في تجريد الأحكام النحوية من التعليل أمر واضح في كتابه ، فقد دعا غير مرة الى الغاء هذه التعاليل التي لا تجدي نفعاً ، وأخذ على النحاة ايغالهم في تعليل الأحكام النحوية، واغفالهم الأحكام والمسائل النحوية التي تستند الى سماع صحيح ، يقول « والنحويون مولعون بكثرة التعليل ، ولو كانوا يضعون مكان التعاليل أحكاماً نحوية مستندة للسماع الصحيح لكان أجدى وأنفع ، وكثيراً ما نطالع أوراقاً في تعليل الحكم الواحد ، ومعارضات ومناقشات ، ورد بعضهم على بعض في ذلك ، وتنقيحات على زعمهم في الحدود ، خصوصاً ما صنفه متأخرو المشارقة على مقدمة ابن الحاجب فنسأم من ذلك ، ولا يحصل في أيدينا شيء من العلم(٨١) .

ومما يوضح لنا موقف أبي حيان من التعليل هو ما صرح به في المسائل الآتية :

١ ــ في مبحث المعرف بالأداة يقول : ذكر أصحابنا فيها مذهبين : أحدهما : مذهب جميع النحاة الا ابن كيسان ، أنها أحادية الوضع ، وهي اللام ، والألف ألف وصل جيء بها وصلة الى النطق بالساكن والثاني : مذهب ابن كيسان انها ثنائية الوضع نحو : قد ، وهل ، وهمزتها قطع . ثم قال أبو حيان : وهذا الخلاف في الأداة قليل الجدوى ، وبعض الألسن خال من أداة التعريف... وهذه كلها أوضاع لاتعلل»(٨٢) .

٢ ــ اختلف النحاة في ناصب المستثنى على ثمانية أقوال .. وقد علق أبو حيان على هذا الخلاف بقوله : مثل هذا الخلاف لا يجدي كبير فائدة ، وهي كالخلاف في رافع المبتدأ والخبر ، ورافع الفاعل ، وناصب المفعول ، وانما الخلاف الذي يجدي هو فيما أدى الى حكم لفظي ، ومعنى كلامي(٨٣) .

٣ ــ بعد أن ذكر أبو حيان اختلاف النحاة في وزن (أيًّا) واشتقاقها ، فانه يقول: وليس في هذا الاختلاف في أيا ، ولا في وزنه كبير فائدة(٨٤) ٠

٤ ــ وفي مبحث المنصوبات يقول : وكون المفاعيل خمسة هو مذهب البصريين ، وزعم الكوفيون أنه ليس للفعل الا مفعول واحد ، وهو المفعول به ، وباقيها مشبه بالمفعول به ٠ وهذا الخلاف لا يجدي كبير فائدة(٨٥) ٠

وبهذه النظرة الى التعاليل نتخلص من تلك التعاليل التي ما تزال مكان شكوى في النحو العربي ، ونتخلص كذلك من تلك الأفكار الذهنية التي تعود صعوبة النحو الى جزء كبير منها ٠

□ رأيه في العامل :

سلك أبو حيان مسلك القدماء في العامل، وبما يحدثه من أثر اعرابي في الكلمة وهو لم يتأثر بدعوة ابن مضاء القرطبي في الغاء العامل وعدم القول به ٠ بل كان يدعو الى الغاء الخلافات في تقدير العامل ، لعدم ترتب حكم نطقي عليها ، فالعامل عنده موجود ، وله أثر ، ويرى أن الأصل في العامل أن يكون من الفعل ، ثم من الحرف ، ثم من الاسم ، وأن العامل لا يؤثر أثرين في محل واحد ، وأنه لا يجتمع عاملان على معمول واحد الا في التقدير نحو : ليس زيد بجبان(٨٦) ٠

خلاصة الأمر أن أبا حيان كان منساقاً مع النحاة في الاهتمام بالعوامل اللفظية والمعنوية ، وأثرها ٠

□ رأيه في السماع والقياس :

يقوم منهجه العام في القياس على اعتماد المسموع من كلام العرب والعناية به ، ويظهر ذلك في أنه لا يعتد برأي لا يستند الى سماع ، وعلى هذا كان يحدد اختياره لآراء النحاة والحكم عليها ٠

وان نصوص أبي حيان تكشف لنا عن رأيه في السماع والقياس ، يقول :

فلما اطلعنا على مذاهب الناس في هذه المسألة ، ولاختلافهم فيها رجعنا عند الاختلاف الى السماع من العرب ، فما وجدناه منقولا عنهم أخذنا به ، وما لم ينقل من لسانهم اطرحناه ، وذلك مذهبنا في اثبات الأحكام النحوية ، أنّا نرجع فيها الى السماع ٠٠٠ والقياس الذي نذكره نحن في النحو انما هو بعد تقدير السماع ، فلا نثبت الأحكام بالقياس انما نثبتها بالسماع من العرب ، ويكون في الأقيسة اذ ذاك تأنيس وحكمة لذلك السماع ، ومن تأمل كتاب سيبويه وجده في أكثره سالكاً هذه الطريقة التي اخترناها في اثبات الأحكام بالسماع »(٨٧) ٠

فأبو حيان يعتمد النصوص المسموعة كأصل في الاحتجاج للقياس ، وهو في هذا المنهج يقربنا من النصوص المسموعة ، والأساليب الفصيحة التي نطق بها العرب ، ويمكننا حصر منهجه في السماع والقياس فيما يلي :

١ ــ كان أبو حيان يأخذ بالقياس ويحتكم في قياسه الى أصول العربية ٠

٢ ــ كان لا يتوسع في القياس ، فلم يأخذ المثال الشاذ قاعدة يقيس عليها ، وانما يبنى قواعده وأحكامه على الكثير ٠

٣ ــ لا يجوز عنده اثبات قاعدة كلية لمحتمل ظاهر فيه ، وانما يبني القاعدة على الدليل الذي لا يتطرقه الاحتمال ٠

٤ ـ كان يذهب الى استبعاد التراكيب التي لا تسندها النصوص المسموعة •

٥ ـ اذا اجتمع السماع والقياس اختار السماع •

خلاصة القول ان أبا حيان كان يعنى عناية شديدة بالسماع ، ويبني قياسه دائماً على السماع ، ولا يرتضي تلك الأحكام النحوية التي لا تطرد مع قواعد النحو •

□ تأثره بالمذهب الظاهرة :

ذكرت المصادر التي ترجمت لأبي حيان أنه قد أخذ بالمذهب الظاهري ، ثم اختلف في رجوعه عنه الى المذهب الشافعي • وهمنا هنا أن نعرف مدى تأثره بالمذهب الظاهري في معالجته للمسائل النحوية ، وهل كان ظاهرياً حتى في النحو ـ كما قيل ؟ •

لم يكن أثر المذهب الظاهري مقصوراً على تفسير الآيات ، بل امتد أثره الى النحو العربي، فقد ظهر ابن مضاء القرطبي المتوفى سنة (٥٩٢ هـ) وكان متعصباً الى الظاهرية ، وقد استلهم هذا المذهب في ثورته على النحو والنحاة ، اذ وجد أن النحو العربي قد تضخم بتقديرات وتأويلات ، وتعليلات ، وأقيسة كثيرة ، وقد تمثلت ثورته في كتابه (الرد على النحاة) الذي يقول فيه «قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه ، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون الا بعامل لفظي ، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي »(٨٨) •

ولم يقتصر قصده من كتابه على هذا ، بل طالب باسقاط العلل الثواني والثوالث(٨٩) ويرى أن العرب قد أخطأوا في حملهم شيء على شيء في القياس يقول : والعرب أمة حكيمة ، فكيف تشبه شيئاً بشيء وتحكم عليه بحكمه ، وعلة حكم الأصل غير موجودة في الفرع ، واذا فعل واحد من النحويين ذلك جُهل ، ولم يقبل قوله ، فلِمَ ينسبون الى العرب ما يُجهل به بعضهم بعضاً ، وذلك أنهم لا يقيسون الشيء ، ويحكمون عليه بحكمه ، الا اذا كانت علة حكم الأصل موجودة في الفرع(٩٠) •

وقد اختلفت نظرة الباحثين المحدثين الى موقف ابن مضاء من أفكاره هذه ، فمنهم من رأى أنه قد عمل على تطور النحو وتيسيره ، ومنهم رأى أن الدافع الى دعوته هو الشهرة التي كان يطمح الى تحقيقها ، وهي أن يكون اماماً مشهوراً في العربية ، ومنهم من رأى أنه لم يتصد للنحويين بقصد احياء النحو وتيسيره ، بل كان مدفوعاً الى أن يرد عليهم لما يحمله من عقيدة ظاهرية ، وبعضهم يرى أن ابن مضاء كان مجدداً من ناحية ، ومن ناحية أخرى متفلسف يصطنع فلسفة القرون الوسطى(٩١) •

ومهما يكن من أمر فان ثورة ابن مضاء ذهبت صرخة في واد ، لأن قواعد النحو أقيمت على أسس وأصول ، وبذل فيها النحاة كل ما في استطاعتهم في سبيل اقامة صرح هذه القواعد ، وأن هبوب رياح التغيير لم تستطع أن تحرك شيئاً في التراث النحوي •

ولست أود الافاضة في هذا الموضوع ، لأن الذي يهمنا هو مدى تأثر أبي حيان بدعوة ابن مضاء القرطبي •

يمكننا حصر أوجه الاتفاق والافتراق بين أبي حيان وابن مضاء في الأمور الآتية

١ ـ تأثر أبو حيان بابن مضاء في دعوته الى طرح التعاليل التي لا تجدي نفعاً ، قال أبو حيان : والنحويون مولعون بكثرة

التعليل ، ولو كانوا يصنعون مكان التعليل أحكاماً نحوية مستندة للسماع الصحيح لكان أجدى وأنفع(٩٢) .

٢ ـ تأثر به أيضاً في الغاء التمارين غير العملية ، لأنها من وضع النحاة ، ولا يوجد نظائرها في لسان العرب .

٣ ـ أراد ابن مضاء أن يضيق دائرة القياس على حين نجد أن أبا حيان لا يدعو الى الغاء القياس بل كان يأخذ به .

٤ ـ كان ابن مضاء يدعو في كتابه الرد على النحاة الى الغاء نظرية العامل ، فهو يرى مثلا أن الظرف والجار والمجرور اذا وقعا أخباراً فانهما لا يتعلقان بعامل محذوف ، وأنه لا عامل ولا معمول .

أما أبو حيان فانه سلك مسلك القدماء في الاهتمام بالعامل ، وهو على حق في هذا ، لأن انكار العامل فيه انكار للنحو ، وادخال للخلل والاضطراب في المسائل النحوية التي قام عليها تراثنا النحوي .

وخلاصة القول ان القول بظاهرية أبي حيان في النحو ، وأنه كان ظاهرياً في النحو ـ كما قيل ـ انما هو قول مطلق وأمر مبالغ فيه ، لأن تأثره بالمذهب الظاهري في منهجة النحوي كان محدوداً ، لا يمكننا القول بأن نحوه كان نحواً ظاهرياً ، وانما الذي نستطيع أن نقوله هو أن تأثر أبي حيان بالظاهرية كان كتأثره بأي مذهب نحوي آخر، فانه يأخذ منه ما يتمشى مع منهجه وتفكيره في التيسير والسهولة .

□ الحواشي :

★ قال السيوطي : النفزي ، نسبة الى نفزة قبيلة من البربر . بغية الوعاة ٢٨٠/١ . وقال ياقوت : نفزة ـ بالفتح ثم السكون ـ مدينة بالمغرب بالأندلس معجم البلدان ٢٩٦/٥ .

★★ جيان : بالفتح ثم التشديد مدينة لها كورة واسعة بالأندلس ، تتصل بكورة البيرة ، مائلة عن البيرة الى ناحية الجوف ، شرقي قرطبة ، بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخا . معجم البلدان ١٨٥/٣ .

★★★ نفح الطيب : ٢٩٢/٣ .

١ ـ مقدمة ابن خلدون الفصل ٣١ ص ٥٣٧ .
٢ ـ ينظر غاية النهاية ٢٨٥/٢ ، وبغية الوعاة ٢٨٠/١ ، وشذرات الذهب ١٤٦/٦ .
٣ ـ البحر المحيط ١١/١ .
٤ ـ البحر المحيط ٦/١ .
٥ ـ البحر المحيط : ٥/١ وما بعدها .
٦ ـ ينظر منهج السالك في الكلام على الفية ابن مالك ـ لأبي حيان ص ٢٣١ .
٧ ـ ينظر نفح الطيب ٢٩٥/٣ ، والنجوم الزاهرة ١١١/١٠ .
٨ ـ ينظر نفح الطيب ٣٣٨/٣ ، وشذرات الذهب ١٤٦/٦ .
٩ ـ شذرات الذهب ١٤٦/٦ .
١٠ـ ينظر نفح الطيب ٣٢٠/٣ .
١١ـ ينظر البحر المحيط ٣/١ .
١٢ـ ينظر شذرات الذهب ١٤٦/٦ .
١٣ـ نكت الهميان ص ٢٨١ ، والدرر الكامنة ٣٥٢/١ .
١٤ـ ينظر طبقات الشافعية الكبرى ٣٢/٦ .
١٥ـ ينظر غاية النهاية ٢٨٥/٢ ، والبحر المحيط ٧/١ .
١٦ـ ينظر البحر المحيط ٦/١ ، ٨٣ ، ٣٢٣/٤ ، ٤٩٧/٥ . وبغية الوعاة ٢٨٠/١ ، ونفح الطيب ٣٠٣/٣ .
١٧ـ المتوفى سنة ٧٥٦ هـ ، ينظر الدرر الكامنة ١٣٤/٣ .
١٨ـ المتوفى سنة ٧٧٢ هـ ، ينظر الدرر الكامنة ٤٦٣/٢ .
١٩ـ المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، ينظر الدرر الكامنة ١١٧/٢ .
٢٠ـ المتوفى سنة ٧٦٦ هـ ينظر الدرر الكامنة ٣٧٢/٢ .
٢١ـ المتوفى سنة ٧٥٦ هـ ، ينظر الدرر الكامنة ٣٦٠/١ .
٢٢ـ المتوفى سنة ٧٧٨ هـ ، ينظر الدرر الكامنة ٦١/٥ .
٢٣ـ المتوفى سنة ٧٤١ هـ ، ينظر الدرر الكامنة ٥٧/١ .
٢٤ـ بغية الوعاة ٢٨٠/١ .
٢٥ـ بغية الوعاة ٢٨٠/١ ، والدرر الكامنة ٣٠٤/٤ .
٢٦ـ ينظر نكت الهميان ص ٢٨٣ ، والبحر المحيط ٣٤/٢ .
٢٧ـ ينظر نكت الهميان ص ٢٨١ ، وشذرات الذهب ١٤٥/٦ ، ونفح الطيب ٢٩٦/٣ .



٢٨ـ ينظر بدائع الزهور ١٩٩/١ ـ ٢٠٠ ٠

٢٩ـ البحر المحيط ٣٧٧/٣ ٠

٣٠ـ البحر المحيط ١٤٩/٥ ٠

٣١ـ ينظر نفح الطيب ٣٢١/٣ ٠

٣٢ـ البحر المحيط ٢٤٢/٤ ، ١٤ ٠

٣٣ـ ينظر نفح الطيب ٢٩٢/٣ ، وشذرات الذهب ١٤٧/٦ ، والدرر الكامنة ٣١٠/٤ ٠

٣٤ـ ينظر طبقات الشافعية للأسنوي ص ٩٧ ٠

٣٥ـ ينظر غاية النهاية في طبقات القراء ٢٨٦/٢ ٠

٣٦ـ نفح الطيب ٣١٥/٣ ٠

٣٧ـ ينظر نفح الطيب ٢٠٧/٣ ، وينظر المطبوع والمخطوط والمفقود منها في كتاب « أبو حيان النحوي » للدكتورة خديجة الحديثي ص ١٠١ ـ ٢٥٩ ٠

٣٨ـ هذا الكتاب قيد الطباعة ٠

٣٩ـ التشبيع : التخليط واضطراب الكلام ٠

٤٠ـ الضرَب : العسل الأبيض الغليظ ٠

٤١ـ انظر بغية الوعاة : ٢٢٥/١ ٠

٤٢ـ التذييل والتكميل ٥/١ ٠

٤٣ـ انظر المنصف ٤/١ ٠

٤٤ـ الهمع : ٥٥/١ ٠

٤٥ـ الهمع : ٧٨/١ ٠

٤٦ـ انظر الكتاب ٢٥٩/٢ ٠

٤٧ـ انظر الكتاب ٣٠٣/١ ٠

٤٨ـ الرسم : هو تعريف الشيء بصفاته العرضية اللازمة فيه٠

٤٩ـ الحد : هو تعريف الشيء بصفاته الذاتية ٠

٥٠ـ انظر اللهجات العربية في التراث ـ د٠ علم الدين الجندي ص ١٤٩ ٠ ١٥٩ ٠

٥١ـ المزهر ١٥٣/١ ٠

٥٢ـ سورة البقرة ، الآتية : ٣٥ ٠

٥٣ـ البحر المحيط : ١٥٨/١ ٠

٥٤ـ انظر اللهجات العربية في التراث ص ١٥٦ ٠

٥٥ـ انظر البحر المحيط : ١٤/١ ٠

٥٦ـ سورة البقرة ، الآية : ٢٢٨ ٠

٥٧ـ سورة الزخرف ، الآية : ٨٠ ٠

٥٨ـ سورة البقرة ، الآية : ٥٤ ٠

٥٩ـ سورة فاطر ، الآية : ٤٣ ٠

٦٠ـ انظر البحر المحيط ٢٠٦/١ ، ١٨٨/٢ ٠

٦١ـ سورة البقرة ، الآية : ٥١ ٠

٦٢ـ انظر البحر المحيط : ١٩٩/١ ، ٣٢٣/٢ ، ٨٨/٣ ٠

٦٣ـ سورة الشرح الآية : ١ ٠

٦٤ـ البحر المحيط ٤٨٧/٨ ، والارتشاف الورقة ٢٨٤ ، والمحتسب ٣٦٦/٢ ٠

٦٥ـ انظر خزانة الأدب ٩/١ ـ ١٢ ، والاقتراح للسيوطي ص ٢٥ ٠ والتذييل والتكميل في شرح التسهيل (مخطوط) ١٦٩/٥ ٠

٦٦ـ الارتشاف : ١٣١ ٠

٦٧ـ سورة الشعراء ، الآية : ٥٠ ٠

٦٨ـ سورة سبأ ، الآية : ٥١ ٠

٦٩ـ الارتشاف : ١٨٥ ٠

٧٠ـ الارتشاف : ١٨٢ ، والبحر المحيط : ١٦/٧ ٠

٧١ـ الارتشاف : ١٥٥ ٠

٧٢ـ الارتشاف ١٨١ ، ومنهج السالك ١٧٧ ٠

٧٣ـ الارتشاف : ٢٥٩ ٠

٧٤ـ الارتشاف ٢٨١ ، ومنهج السالك ٣٠٦ ٠

٧٥ـ سورة البقرة ، الآية : ٩٦ ٠

٧٦ـ سورة الأنعام ، الآية : ١٢٣ ٠

٧٧ـ الارتشاف ٣٣٠ ، ومنهج السالك : ٤١١ ٠

٧٨ـ الارتشاف ١٣٥ ، والتذييل والتكميل : ١٣٩/٥ ٠

٧٩ـ الارتشاف ٣٧٧ ، ومنهج السالك ٣٦٦ ٠

٨٠ـ انظر البحر المحيط ٩٠/١ ـ ٩١ ، ٢٨٠/٣ ٠

٨١ـ انظر منهج السالك ص ٢٣٠ ٠

٨٢ـ الارتشاف : ١٣٣ ، والهمع : ٧٩/١ ٠

٨٣ـ الارتشاف : ٢٢١ ٠ وينظر شرح التصريح ٣٥٩/١ ٠

٨٤ـ الارتشاف ١٢٣ ٠

٨٥ـ الارتشاف : ١٩٥ ٠

٨٦ـ الارتشاف : ١٠٦ ، والتذييل والتكميل : ١٩٥/٥ ٠

٨٧ـ انظر التذييل والتكميل : ١٥٣/٣ ٠

٨٨ـ الرد على النحاة : ٨٥ ٠

٨٩ـ انظر الرد على النحاة : ١٥١ ٠

٩٠ـ الرد على النحاة : ١٥٦ ٠

٩١ـ انظر النحو العربي ـ لابراهيم السامرائي : ٩٨ ، ١٩٥ ، ومجلة مجمع اللغة بالقاهرة الجزء السابع ص ٧٧ ٠

٩٢ـ منهج السالك : ٢٣٠ ٠